التفاعل الديني الاجتماعي في بوركينافاسو

(الأرواحيّة والإسلام) نموذجاً

أ. زينب بيلا تاسير ييانكيني

كاتبة وباحثة، وأستاذة في المركز الجامعي للتخصصات المتعددة – بوركينافاسو.

خصائص المجتمع في بوركينافاسو[1]:

يصعب الفصل بين الدين والعلاقات الاجتماعية في بوركينافاسو؛ لأنّ المعتقدات التّقليدية تتجاوز الفرد، وتقابل نمطاً مميَّزاً من أنماط المجتمع، وأنماط السلوك الاجتماعي تتحدد بالمعتقدات، فأول ما يشعر به كلّ إنسان الوازع الدّيني، أو الخوف من الأخطاء، وهو ما يعكس الخضوع للتقاليد التي تفرضها الطقوس والشعائر الدّينية، وتبعاً لذلك الثّقة في الجماعة التي ينتمي إليها[2].

وتأتي الأرواحية أولاً بوصفها الديانة التقليدية في بوركينافاسو، ثم يأتي بعدها الإسلام، ثم المسيحية، أي أنها دولة متعددة الأديان[3].

وستعرض هذه الدراسة المختصرة بعض مظاهر التفاعل الديني الاجتماعي في بوركينافاسو، في موازنة بين الأرواحيّة والإسلام.

معتقدات الدّيانة الأرواحية وخصائصها:

تعريف الأرواحية:

الأرواحية: هي الديانة المنتشرة في بوركينافاسو قبل مجيء الإسلام، وهي: «تقوم على تصوّر وجود مخطّط روحيٍّ وراء المخطّط الطبيعي، والاعتقاد بوجود نفسٍ للأشياء، وبالثنائية، وبأنّ وراء كلّ شيءٍ روحاً، ووراء كلّ ظاهرة عقلاً، وأنّ هناك إرادة في كلّ ما نظنّه صُدفة، وأنّ الإنسان الذي يعي ازدواج الطبيعة يرى أنّ كلّ ما يحيط به مشابهٌ له، ويلاحظ أنّ في داخله صلةً وثيقةً بين المادة والعقل، فهو يحاول عبر الأشكال الخارجية أن يؤثّر في الأرواح التي وراءها»[4].

ويعتقد الأرواحيون أنّ في هذا الكون المنظّم قوةً تتحرك، ويتعيّن على المعتقِد تحديد مسار حركتها بطقوسٍ دينيةٍ تمنع الكوارث التي يمكن أن تصيب الإنسان.

الخالق الأعظم:

مفهومه عند الأرواحيين: أنه القوة التي قامت بخلق العالم دفعةً واحدةً، ثم تسامت عن البشر، وأخلدت إلى الرّاحة، وأنابت عنها الآلهة الصغرى، ووكّلتها بشؤون الأرض، ويعتبرون هذه القوة كائناً فوق الكائنات الموجودة بالأرض[5].

ومن خصائص هذا الكائن العلويّ أنّه منزّه عن الصفات البشرية، وهو أزليٌّ لا نهائي، ويسود الاعتقاد في أنّ الخالق الأعظم وإن كان بعيداً عن النّاس، حيث لا تدركه حواسهم، فهو غير مقطوع الصلة بهم، بل ينظر إلى أفعالهم، ويراقب سلوكهم، فيكافئ الأخيار ويعاقب الأشرار، وهو الذي ينزّل الأمطار أو يمنعها، كما يحقّق الخصوبة أو يقطعها، ويشفي من المرض أو يبتلي به، ويطيل الأعمار أو يقصّرها، وهو لا يُرَى ولا يُلمَس ولا يُسمَع، إذ هو كالهواء موجود في كلّ مكان، ولا يهتم بالمسائل الشّخصية، لهذا لا يقبل العبادات والطقوس التي توجّه إليه إلاّ عندما تكون

حرّر الإسلام المجتمع البوركيني من كثير من القيم الاجتماعية الأرواحية المنحرفة والبعيدة عن الفطرة السليمة

(١) تقع بوركينافاسو (فولتا العليا سابقاً) في غرب إفريقيا، تحيط بها: (مالي، والنيجر، وبنين، وتوغو، وغانا، وساحل العاج)، وقد ذهب المؤرخون إلى أنه لا يُعرف الكثير عن ماضي (بوركينافاسو) سوى أنها كانت جزءاً من إمبراطورية غانا، وفي القرن الرابع عشر الميلادي وبعده أصبحت جزءاً من إمبراطورية مالي الإسلامية، ومن ثمّ أصبحت جزءاً من إمبراطورية الصونغاي الإسلامية، كما أنها في وقتٍ ما كانت جزءاً من ساحل العاج، وكأنّ بنيتها الاجتماعية متعددة، انظر:
Delafosse Maurice: Haute sénégal – Nigéria, Soudan Français Paris, 1912, 3 vol 316.

(٢) د. عبدالرحمن عمر الماحي: الدعوة الإسلامية في إفريقيا الواقع والمستقبل، ص ٧، ديوان المطبوعات الجامعية، الساحة المركزية ابن عنكبوت، الجزائر.

(٣) مرجع سابق، Délafosse, op cit 428.

(٤) Dictionnaire des religions: P.U F.France, 1984.

(٥) ديشان هوبر: الديانات في إفريقيا السوداء، القاهرة ١٩٥٦م، ص ٢٢.

جماعية، أي من عامّة الشّعب، وإلاّ يعاقب صاحبها، فهو – لهذا – موضع خشية، ومعقد رجاء، ومحلّ عبادة، فتُقام له المحاريب، وتُقدَّم إليه القرابين، ويُتوسّل إليه بالدّعاء بواسطة الأسلاف[1] – كلّ هذا بحسب اعتقادهم–.

عبادة الأسلاف:

تتخذ عبادة الأسلاف – عند الأرواحيين في بوركينافاسو – شكلاً جماعيّاً، كما تُقام لها الاحتفالات والطقوس عادة، حيث تعمّ القريةَ موجةٌ من الرقص طوال الليل، وفي اليوم التالي يخرج الناسُ لصيد الحيوانات البريّة، ويُقدَّم قَدْرٌ من الحصيلة قرباناً للأسلاف، وذلك بتركها في الخلاء، وقَدْرٌ للكهنة.

وإذا كان الاحتفال متعلّقاً بموسم زراعي؛ فيضرب كاهنُ الأرضَ بفأس أو آلة ما حادة، بعد ذلك يمكن استهلاك أول محصول، وشرب أول كأس خمر إكراماً للأسلاف، وتستمر طقوس إكرام الأسلاف شهرين عند بعض الأجناس، تحت إشراف الكهنة والزعماء التقليديين[2].

وهم بهذه الأفعال يعتقدون أنّ هذه الأرواح تتوسط لهم عند الإله، كما كان يفعل أسلافهم الموتى، وهنا نلاحظ دَوْر عبادة الأسلاف عند الأرواحيين.

الوفاة عند الأرواحيين:

إذا توفّي المرء – عند الأرواحيين في بوركينافاسو – علا بكاء أهله وعويلهم، وقبل دفنه يتحقّق الكهنة في أسباب وفاته، ثم يُعدّون الطقوس والمراسم اللازمة للدفن والتأبين[3]، ثم يُسأل الناس مَن له دَيْن على الفقيد؛ ذلك لأنهم يعتقدون أنّ دفن الميت قبل تسديد ديونه يعرضه للعذاب في قبره.

كما أنهم يؤمنون بأنّ روحه أو قرينه سيرجع إلى داره ليتفقد أهله[4]، وسبب هذا الاعتقاد يعود إلى تقسيمهم للإنسان إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: الإنسان بلحمه ودمه، والثاني: النّفْس، وهي في اعتقادهم مادة مكوّنة من دم وريح (ما يعبّر عنه في الفرنسية Souffle)، ثم الثالث: يتمثّل في شخصٍ مصاحبٍ لنا طوال حياتنا؛ هو الروح.

فالقسم الأول، أي الإنسان، يأكله التراب، والثّاني تذوب في الكون، أو تنتقل إلى إنسانٍ آخر أو حيوان، أما الثالث، وهو الرّوح، فتبقى مع صاحبها في قبره ثلاثة أيام، ثم تتفقد داره من حين لآخر[5].

رفع الحداد عند الأرواحيين:

بعد الوفاة بثلاثة أيام تُذبح الذبائح، ويُقدّم الطعام والشراب، وبعد الدّفن بثلاثة أشهر يُرفع الحداد، وعندئذ يُقام احتفالٌ كبير، تُقدَّم فيه المأكولات الشهيّة والمشروبات الرّوحية والطقوس الدّينية، والهدف إعادة التوازن الاجتماعي وتحرير الأحياء من ممنوعات الحداد، وبذلك يوضع الميّت ضمن فئة الأسلاف بشكلٍ نهائيٍّ[6].

وعموماً لا يرى الأرواحيون في بوركينافاسو الموت ظاهرة طبيعية عادية، بل كثيراً ما يذهب ظنّهم إلى أنّ عدواً ما ألحق بالميت هذا الأذى، ولعلّ في هذا ما يدلّ على أنّ للسحر دَوْراً أساسيّاً في حياتهم، ومع ذلك يرون الموت حالة يعبرها الإنسان، وترشّحه لمجلس الأسلاف الذين يقومون بدَوْرٍ كبيرٍ لدى الأرواح والآلهة.

ومما سبق نستخلص أنّ الدّيانة الأرواحيّة تعتقد:

١ – أنّ في العالم وحدةً أو قوةً روحية تسري فيه؛ بدايةً من أصغر ذرة إلى أكبر نجم، مروراً بالحيوان حتى الإنسان، فعلى الإنسان السّعي لمعرفتها وفهمها؛ ليتسنّى له التوحّد معها في نهاية الأمر؛ لأنّ الانعزال في الكون موتٌ محقّق، فعلى الرّغم من أنّ الله حاضرٌ في كلّ مكان وفي كلّ شيء

---

(١) ديشان هوبر، مرجع سابق، ص ٦٢.

(٢) د. عبدالرحمن عمر الماحي، مرجع سابق، ص ١٣.

(٣) التأبين: أن يقوم أحد أصدقاء الميت فيصف خصاله أمام الحاضرين، ثم يقوم أحد أقاربه بالعمل نفسه، وإن كانت امرأة فيفضل لديهم أن يكون زوجها هو الذي يقوم بهذا العمل.

(٤) حسن سعيد جلو: تأثير الديانات الإفريقية في مسلمي بلاد السودان: أطروحة لنيل شهادة دراسات معمقة، تونس ١٩٩٥م – ١٩٩٦م، ص ١٣٣.

(٥) Vieillard Gilbert: La contribution de la sociologie des peuls, IFAN, DAKAR, 1960, p 132.

(٦) Dictionnaire des religions: P.U F. Art Africain.

– فـي اعتقادهم–؛ فإنه في المقابل غائبٌ أو بعيد، ومن ثمّ لا ينغمـس في الأجـزاء الفردية المعزولة، لأنّه يشـارك روح الجماعة عن طريق الأجداد أو غيرهم.

٢ – الأجـداد هـم الوسـطاء بيـن العالـم المرئـي واللامرئـي، فهـم برغـم موتهـم حاضـرون مـع الأحيـاء، وشـاهدون علـى أعمالهـم، فيفرحـون إن أصـاب الأحيـاء مـن أقربائهم، ويغضـبون إن أسـاؤوا، ويتدخّلون عن طريق القرابين ليشفعوا لهم، فعلى الأحياء أن يستغلوا مكانتهم.

٣ – العالم ليس خالياً من الكائنات المرئية واللامرئية، فعلـى الإنسـان أن يعرف أنّه ليس وحيداً فـي الكون، بل معه الجنّ والأرواح، وهي لا تقلّ عنه وجوداً، فعن طريق الطقوس والشّـعائر اليوميّة والموسـميّة يمكن توحيد هذه العناصـر، ومن ثمّ فالإنسان متديّن بالضرورة.

العـلاقـة العـقـائـديـة بـيـن الإسـلام والأرواحية:

هنـاك شـيء من الخصوصـية فـي عقيدة المسـلمين فـي وجـود الله فـي بوركينافاسـو، ذلـك أنّ الإلـه الأعظم كان معروفـاً لـدى الأرواحيين في هـذه المنطقة قبل مجيء الإسـلام، والكائنات الأخرى، مثل الملائكة والجنّ وغيرها، لا تمثّل هي الأخرى صـعوبات لـدى الأرواحيين؛ لأنهم كانوا يعرفون أنواعاً من الكائنات الروحية في هذه المنطقة.

وبالرغم من أنّ المفهوم الإسلامي غزا ويغزو المفاهيم البوركينية بصفة مستمرة، وأزال فعلاً بعض المفاهيم؛ فإنه من المؤكد أنّ بعضـها ما يـزال موجوداً عند بعض الأجناس في بوركينافاسو[١].

ومن مظاهر ذلك:

الكلمات التي تقابل كلمة: (الله) في الإسلام:

– عند بيسا Bisa: (هُنْسُ Hounsou).

– عند الموسي: (وِنْده Windé).

– عند غورمنتشي (Gourmantché): (أُوْتِيَيْن Otiéne).

– عند جنـس الجـولا dioula: (مَاتِيغِـي أَلَـه ALAmatighi)[٢].

– عند الفلاتة: (جومراطو).

– ولـدى بوبـو Bobo: نجـد: (دُوُوْ DWO) تقابل اسم: (الخالق) في الإسلام.

– ونلاحظ أنّ اسـم (الله) عند ماندنغ قريب من اسم (الله) في الإسـلام، ويبدو أنّ هذا الجنس تأثّر بالمصطلح الإسـلامي، ولعلّ هذا ما يجعلنا نقول إنّ المفهوم الإسلامي قـد غـزا بعض المفاهيم فـي بوركينافاسـو، فوجـود هذا الإله المفـارق في ثقافة الأرواحيين فـي هذه المنطقة جعل الاعتقاد بالله أمراً سهلاً.

وكذلك نرى أنّ الإسلام يتميّز عن الأرواحية في موضوع الجزاء (الثواب والعقاب)، فهو في الإسـلام: دنيوي، يتمثل في إقامـة الحدود والتعزيـرات، وأخروي، وهـو الجزاء في الآخرة.

أما الأرواحية فكلّ أحكامها دنيوية، وقد تكون العقوبات فناء أو انقطاع نسـل أو تعرض للعنـة وكوارث، وهم يخافون من السـرقة والزنا لأنّ اللعنة سـتتبعهم هم وذريتهم، وهذه اللعنـة لا تمهل لأنّ القوى الطبيعية مـن ريح ومطر وأمراض فتاكـة، كلها مسـخّرة لها، فـلا يمكن الإفلات مـن العقاب، كما يعتقدون أنّ هناك أرواحاً خفية تسـري في المادة، وفي العالم بصفة عامّة، تقوم بالمهام نفسها[٣].

ممـا سـبق؛ نلاحـظ أنّ هنـاك اختلافـاً كبيـراً بيـن العقيدتين، الإسلامية والأرواحية، في مستوى الجزاء، ومن ثمّ لا يُتصوّر التوفيق بينهما.

وعمومـاً؛ فالإيمـان بالإلـه عنـد البوركينييـن شـبيه بشـركيات العـرب قبـل الإسـلام، فـأرواح الأسـلاف هـي الوسـاطات إلى الإله الأعظم، كما قال المشركون في عبادة أصنـامهم: ﴿... مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى...﴾ (الزمر: ٣).

فالأرواحية، وإن بدا في ظاهر الأمر أنها تتّسـم بوحدة بناء ورؤية كلية للكون، فإنه بناءٌ واهٍ، ورؤيةٌ ضـبابيةٌ قاصرة؛ كما يتضـح من معتقداتها وقصـور اسـتيعابها لحياة ما بعد

(١) La terre Africaine et ses religion: Larousse .Paris, 1983, p 214

(٢) ديشان هوبر، مرجع سابق، ص ٦٣.

(٣) حسن جالو، مرجع سابق، ص ٩٠.

الدنيا، وهي الحياة الباقية، وقد وصف البروفيسور جوزيف كي زيربو المجتمع الإفريقي التقليدي (الأرواحي): بهشاشة البنية الثقافية والاستبدادية الشمولية... وأنّ «الإفريقيين وصلوا إلى طريق مسدود، فقد كانوا يزعمون أنهم يروّضون الطبيعة بواسطة رموزهم وطقوسهم السحرية»، ثم ينتهي ليقول: «نحتاج لترويض الطبيعة بالأدوات والمعاول!»، وترويض الطبيعة بالعمل والإنتاج لإعمار الأرض وإسعاد العباد هدفٌ ارتضاه الإسلام وحثّ على تحقيقه[١].

العلاقة الاجتماعيّة بين الأرواحيين والمسلمين:

منذ أن دخل الإسلام إفريقيا عمل على تصحيح المفهومات والمعتقدات والقيم في المجتمعات الأرواحية وغيرها، «وصاغها في منظومة قِيَمه الربانية، فوجدت قبولاً واسعاً بين شعوب إفريقيا جنوب الصحراء، وانعكس ذلك جليّاً في نهضتها الاجتماعية، وتحرّرها من أغلال المحرمات (التابو)، وتعسّف القيم الإحيائية، وثقل الروابط العشائرية الطوطمية التي أثقلت خطاها وحالت دون نهضتها»[٢].

وبعد مجيء الإسلام إلى بوركينافاسو، في أواخر القرن ١٨ الميلادي، وانتشاره، بلغ المسلمون - وفقا لتعداد ٢٠٠٦م - (٥٣ ٪ - ٦٠ ٪) من السكان[٣]، ولتمسك بعض البوركينيين بعقيدتهم الأرواحية أصبح المجتمع منقسماً إلى: مسلمين، وهم الأكثرية، وأرواحيين.

وقد تصدّت الأرواحية للإسلام أول الأمر في هذا البلد، وحاربته بشكل عنيف، وبكلّ قوة[٤]، يقول الشيخ Touré - في ندوة أبيدجان سنة ١٩٦١م-: «إنّ جماعة Mossi في بوركينافاسو لم تكن تسمح بالصّلاة في واغادوغو، فإذا صلّى مسلمٌ ألزموه بأن يحمل معه التّراب الذي سجد عليه، كما كانوا يرفضون إعطاء المسلم وعاءً لكي يشرب»[٥].

هذا يدلّ على أنّ سكان بوركينافاسو في تلك الفترة التّاريخية لم يكونوا يميلون إلى الإسلام، «فقد رُوي أنّ رجلاً من قبيلة الموسي وعد تزويج ملكه الوثني من ابنته، قبل اعتناقه للإسلام، فلمّا أصبح هذا الرجل مسلماً حاول إقناع ملكه باعتناق الإسلام ليمكّنه من الزواج بالبنت التي وعده إيّاها، وأبلغ المسلم صاحبه الوثني أنّه لا يستطيع إعطاء ابنته إلى وثنيٍّ حتى ولو كان ملكاً، فأجاب الملك الوثنيّ قائلاً: إنّ التزاماته العرفية تحول دون اعتناق الإسلام. قائلاً: إنّ الفتيات الوثنيات يعتنقن ديانة أزواجهن المسلمين؛ فمن العدل أن تفعل الفتيات المسلمات نفس الشيء»[٦].

يتبين من هذا الحوار قوة تمسّك المسلمين بدينهم والتزامهم بأحكامه، فهذا المسلم رفض تزويج ابنته لملك لكونه وثنيّاً - اعتزازاً بدينه -؛ برغم ما كان من سابق وعدٍ منه بذلك قبل إسلامه، بل دعا هذا الملك إلى الإسلام.

وقد تحقّق للإسلام انتصاره على الأرواحية في كثير من مناطق بوركينافاسو، حيث ظلت الديانة الأرواحية تتمتع بشيء من النفوذ؛ ما دفع المسلمين إلى إنشاء أحياء وقرى جديدة خاصّة بهم، وبنوا فيها المساجد، وأسّسوا الزّوايا لحفظ القرآن وتلقين اللّغة العربية والعلوم الشّرعية لأبنائهم، وبهذا استمر المسلمون في هذا البلد في استقطاب بقية الأرواحيين[٧].

ومن أسباب انتصار الإسلام على الأرواحية في تلك الفترة، نذكر منها:

١ - الإسلام ومبادئه القويمة: فهو دين الفطرة السليمة، وجدت فيه الأنفس التوافق التامّ، فاستجابت له، كما استجابت العقول لبالغ حكمته وسلامة منطقه في عقائده وأحكامه، كما أنه يتضمّن قِيَم الإنسانية الحقّة التي تحقّق كرامة الإنسان، والحرية الحقيقية التي تخلّصه من

(١) أ.د. مهدي ساتي: الإسلام والقيم الاجتماعية للجماعات الأرواحية في إفريقيا جنوب الصحراء، بحث منشور على الرابط: http://www.islam4africa.net/ar/more.php?cat_id=18&art_id=61

(٢) انظر: مهدي ساتي، مرجع سابق.

(٣) انظر: http://ar.wikipedia.org

(٤) المرجع نفسه، ص ١٥.

(٥) Vincent Monteil، مرجع سابق، ص ١٧.

(٦) Vincent M، مرجع سابق، ص ٧٢.

(٧) عمر الماحي، مرجع سابق، ص ١٠٦.

الخوف ممـا يتوهّمه ويعتقـده في أرواحيةٍ لمصـادر قوى لا تملك لنفسها ضرّاً ولا نفعاً.

٢ – قـوة الإسـلام فـي مقاومـة الاسـتعمار وضـعف الأرواحية: انتبه المجتمع الأرواحيّ أمام الزحف الاستعماري المـزوّد بمعـدات متطـورة إلـى أنّ الأرواحيـة تعجـز عـن المقاومة، فكان لا بـد للأرواحية من البحث عن قوة أخرى، فاعتنقت دين الإسـلام لكي يفتح لها آفاقاً جديدة، وييسّـر لها الحصـول على تغيّـرات بنيوية جديدة وقوية تسـاعدها على التصـدي للزحف الاسـتعماري؛ ونلاحظ أنّ الاستعمار الأوروبي لمنطقة بوركينافاسو قد تسبّب بصفة غير مباشرة في نشـر الإسلام وتوسعه على حساب الأرواحيةٍ، ومما يؤكّد هـذا أنّ جلّ أبناء البلاد الذين وظّفهم الاسـتعمار في مهام دبلوماسية في شمال إفريقيا قد عادوا مسلمين[١].

٣ – الهجـرة الاقتصـادية لأبنـاء المنطقـة إلـى غانا، وغيرهـا مـن المناطق التي كان الإسـلام منتشـراً فيها في ذلك الوقت: عزّزت انتشـار الإسـلام في بوركينافاسـو؛ لأنّ المهاجريـن بعـد عودتهم إلى الوطن قامـوا جميعاً بالدعوة للإسلام.

٤ – صعوبة نقل طقوس الأرواحية: فالمقيمون من أبناء بوركينافاسـو في مملكـة غانا كان يصـعب عليهم – مثلاً – نقـل قبور الأجـداد المنتهكـة، والتماثيل التـي يعبدونها في الوطـن، إلى غانا، وفي غياب المذبح العائلي؛ لذلك ابتعدوا – لبعد المسـافة – عن الأرواحية شـيئاً فشـيئاً، حتى ترسّخ الإسـلام فيهم خـلال إقامتهم في غانا، وعـادوا إلى البلاد وهم يتعززون بالإسلام بوصفه قيمة يُحتذى بها[٢].

٥ – الإسـلام يسـمح بعقد زواج شـرعي خلافاً للزواج علـى الطريقـة الأرواحيـة: فغالبـاً مـا يتـزوّج المهاجر في بوركينافاسـو في تلك الفتـرة تبعاً لتقاليـد الأرواحية، لكنه بعـد عودتـه إلى غانا مـع زوجته يعقـد قرانه عليها حسـب الشعائر الإسلامية، وكذلك كان تعدد الزوجات في الإسلام عاملاً آخر لانتصـاره على حسـاب الأرواحيـة؛ برغم وجود هـذا العنصـر فـي منظومتهـا – حسـب قـول Joseph

Lounoual في سنة ١٩٦٠م–[٣].

العلاقة الثقافية بين الأرواحيين والمسلمين:

على الرغم من أنّ نسبة ٦٠ ٪[٤] من سكان بوركينافاسو تعتنق الإسـلام؛ فـإنّ بعض الأعراف والتقاليـد القديمة لم تجتـث؛ لأنّ لهـا معانيها ودورها في الحيـاة اليومية، كما أنّ جذورهـا متأصلـة في نفوسـهم، فكان لا بد من صـراع بين القيـم التقليدية وبين القيم الإسـلامية، وتفاعـلٍ في بعض الجوانـب التـي يمكن التوفيق فيهـا بين الثقافـة البوركينية الموروثة وبين الثقافة الإسلامية الجديدة.

ولعلّ هذا كان سـبباً لما أطلق عليه البعض خطأً اسـم: (الإسـلام الأسود)؛ فالإسـلام فوق ذلك، كما أنّ ذلك فَهْمٌ قاصـرٌ لحقيقـة تفاعـل شخصـية الإفريقـي مع الإسـلام، ومنهجهـا الخاص فـي فهمه وممارسـته، بل موقـف الناس جميعاً في كلّ مكان، وقد صـوّر النبي صـلى الله عليه وسـلم

(١) Vincent Mit، مرجع سابق، ص ١٤.

(٢) Jean Loui T ، مرجع سابق، ص ١٢٣.

(٣) Jean Loui T ، مرجع سابق، ص ١٢٤.

(٤) John Baur: 2000 years 07 chrilianity in africa, Nairobi, pautesses, 1994,p 524.

ذلك فقال: (مثل ما بعثني الله به من الهُدى والعلم كمثل الغَيث الكثير أصاب أرضاً، فكان منها نقيّةٌ قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعُشبَ الكثيرَ، وكانت منها أجادبُ أمسكت الماءَ فنفع الله بها الناسَ فشربوا وسقَوا وزرعُوا، وأصابت منها طائفةً أخرى إنما هي قيعانٌ لا تمسك ماءً ولا تُنبت كلأً، فذلك مَثَلُ مَن فقُه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به، فعلم وعَلّم، ومثل مَن لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هُدى الله الذي أُرسلت به)[1].

وما أدخله الناس على الإسلام من معتقداتهم وعاداتهم وتقاليدهم لا يعدّ من الإسلام في شيء إلا إن كان موافقاً له، ولا يُسمّى الإسلام بهذا التوافق إسلاماً أبيض أو أسود، ولا أعجمياً ولا عربياً ولا بربرياً، ومن أحدث فيه ما ليس منه فهو ردّ؛ والإسلام له صبغته الربانية الخاصّة، كما قال تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ (البقرة: ١٣٨).

ومن الخطأ أيضاً ما زعمه بعضهم من أنّ الإسلام في إفريقيا عامّةً ليس له لون، كالماء لا لون له، وأنه يتخذ لون الأرض والحجارة - كما جاء في تعبير AmadeauhourpatéBa -[2].

وقد خلط بعض البوركينيين العادات والتقاليد القديمة بالإسلام، ومن ذلك:

في الخطبة والزواج:

- من عادات الزواج عند بيسا (bissa):

يعتبر الكرم في قبيلة بيسا وسيلة للزواج، فعندما يُكرم الشّاب شيباً يجازيه ببنت يتزوج بها، وهو أن يقوم المسؤول عن البنت بإعلان أسرة الشاب بأنّه أعطى ابنته لابنهم، فتقوم أسرة الشاب بمراسم الخطبة التي تتكوّن من الطبق والديك الأبيض والخروف والملح وجوز الكولا، فيُعطى قدرٌ من الخمر للأسلاف، ويُذبح الدّيك الأبيض ليطلبوا رأيهم في هذا الأمر، ويُرمى الدّيك بعد ذبحه، فإن وقع على ظهره وارتفعت قدماه إلى أعلى فهو دليل قبول الأسلاف، وإن وقع على أحد جانبيه أو على بطنه فهو دليل رفض الأسلاف للأمر.

وفي الحالة الأولى تُكسر رِجْلٌ واحدة، وبعد ذلك يأكل أبو الشاب وأبو البنت الديك، ويشربان الخمر، ويضعان الطبق - لا غيرهما -، وهذا يعتبر زواجاً مباشراً، وبعد القيام بهذا الواجب تعلن أسرة البنت لأفرادها - أو القرية - الأمر ليعلم الجميع، ثم يختارون يوماً ليأخذوا العروس في الليل، فترافقها امرأةٌ عجوز، وعند رجوعها تُعطى ثلاث غرغرة وكميّة من الحبوب لشيخ الأسرة، وبعد ذلك يتمّ توزيع الملح لإعلان أنّ البنت ذهبت إلى زوجها نهائيّاً.

وعلى الزوج الحذر من أن يشتم أبا البنت أو أمّها أثناء التخاصم؛ لأنّ هذا يعتبر شتماً للأسرة كلّها، وإن حصل ذلك تعود البنت إلى أهلها ولا ترجع أبداً، وإن حصل التخاصم دون شتم الوالدين ترجع إلى زوجها من جديد[3].

- من عادات الزواج عند الفولاته (peulh):

يعتبر ابن (العمّ والعمّة والخال والخالة) - من الفولانيين - أنّ البنت زوجة له، كما يعتقدون في الزواج بين البنت والابن بعد ولادة البنت بأسبوع، وعادةً يتمّ الزواج بين أسرة الابن وأسرة البنت دون علمهما؛ بما يشبه زواج الإكراه، وإذا علم أقران الزوج بالنّكاح يجبرون الزوج على الوليمة بشاة يذبحونها وراء القرية ويأكلونها.

هناك اختلاف كبير بين العقيدتين، الإسلامية والأرواحية، في الجزاء، ومن ثمّ لا يُتصوّر التوفيق بينهما

(١) رواه البخاري، كتاب العلم، باب: فضل من علم وعلّم، ح (٧٩)، ومسلم كتاب الفضائل، باب: بيان مثل ما بعث النبي صلى الله عليه وسلم من الهُدى والعلم، ح (٢٢٨٢).

(٢) Ba Amadeauhourpaté et Dieterlen (germaine) Kouneu texte initiatique des pasteurs peul: Paris, 1961, p 96.

(٣) توتا ماما دويانكيني: من الأسر الحاكمة في كادبوغو، غارا نغو (محافظة بولغو).

ومـن التقاليد أنّ المهر يكون بقرة أو بقرتين أو ثلاث – حسب اسـتطاعة الزوج–، ووالد الزّوجة يتصرف في نصف المهـر، وعنـد الطلاق تحتفـظ البنت بالمهر إذا كان سـوء التصـرف ناتجاً من الـزوج، وإذا كان من البنت يعود المهر إلى الرجل.

وبعد الزّواج يسـتمر الفرح والرقص أسبوعاً، ويذبحون فيهـا الأبقـار والخرفان والماعـز وغيرها، وبعـد الزواج لا يدخل الزوج على الزوجة إلاّ بعد نوم النّاس، ويسـتيقظ قبل اسـتيقاظهم، ويسـتمر هذا مدّة أيام معيّنة، وبعد الزواج لا تتكلم الزوجة مع الزوج إلاّ بعد ولادة ولدين أو ثلاثة.

وهذه العادات مستمرة إلى يومنا هذا[1].

ومن الفروق في عادات الزواج في بوركينافاسو:

– أنّ الزّواج في عادة الأرواحية يخصّ العائلة بالدرجة الأولى، في حين أنه في الإسلام يخصّ الزوجَين.

– عند مسـلمي بوركينافاسو يُعقد الزواج في المسجد، أمّا الطقوس المصاحبة له فهي بوركينية محضة، مثل توزيع جوز الكولا والمشروبات التقليدية.

في تعدّد الزوجات:

تعـدّد الزوجات بـلا حـدّ معيّن عادة قديمـة كان عليها الآباء والأجداد؛ لأنّها كانت من الصـفات الرجوليّة آنذاك، وهي عادة وراثيّة إلى يومنا.

ويلاحظ حتى هذه الأيام تجاوز بعض المسلمين للزواج بأربع؛ برغم أنّ الإسـلام حدّد لنا أربع زوجات مع شـروط، وهـذا دليل واضـح على غلبة العـادة الأرواحيّـة على تعاليم الإسلام، فأغلب الرجال لا يلتزمون بحدود الإسلام في تعدد الزوجات، ويطبقّون ما كان عليه أجدادهم وآباؤهم، وأحياناً تفرض العادات على الرجل التعدد، مثلاً إذا توفّي واحدٌ من الأسرة وترك زوجاته؛ فعلى رجال الأسرة أن يتقاسموا فيما بينهم الأرامل؛ لأنّ الأرملة في العادة لا تبقى معلّقة[2].

في تسمية المولود:

وفي تّسـمية المولود كذلك هنـاك ازدواجية، حيث تعتبر التّسـمية في العادة والتّقليد تطهيراً للمولود (ة)، وذلك أنّه في يوم الولادة يعلن أنّ فلانة زوجة فلان أنجبت، وفي اليوم السـابع يقيمون حفلة التسـمية، فيعطون للمولود (ة) اسماً، ويحلقون شـعره، ويكون الاسـم فـي الغالب عربيّـاً وإن كان نطقه محرفاً نوعاً ما، وأحياناً يُضـاف إلى الاسم الإسلامي اسماً تقليديّاً، أما اللقب فيبقى بوركينيّاً محضاً.

أما طقوس التسـمية فـي القديم فكانت تتطلب شـرب الخمر وعصـير الحبـوب وأكل الخروف وجـوز الكولا، وبعد مجيء الإسـلام نلاحظ أنّ هـذه العادة لم تتغيّـر، إلاّ أنّهم ألغـوا الخمـر فقـط[3]، فالبوركينيـون المسـلمون يذبحون خروفاً في مناسـبة تسـمية المولود، وهي سنّة في الإسلام، أمّا الطقوس المصاحبة لها فهي عادة بوركينية.

في الختان:

بعد التسمية إذا كان المولود ذكراً يقومون بختانه، وإذا كانت بنتاً يقومون بخفضـها، ولنعلـم أنّ هذه الطقوس تُقام علـى ابن أو ابنة المرأة المتزوجة في شـرع العادة والتقليد، فلا تُقام على ابن الزنا.

ويعطى الشيخ دور ختان الأولاد، أما الطقوس المصاحبة لهذه العملية فلا علاقة لها بالإسـلام، وفي مستوى «خفض» البنات؛ فالعملية تتم في جوٍّ تقليديٍّ بوركينيّ[4].

ويبـدو أنّ هـذه الظاهـرة ليسـت مقصـورة علـى بوركينافاسـو فقط، بل في إفريقيا السوداء بصفة عامّة، إذ نجدها كذلك في مناطق أخرى من العالم.

وعلـى هـذا؛ فـإنّ بعض المظاهـر الاجتماعيـة ظلّت تمارس بصـورة فيهـا مزاوجة بين الإسـلام والأرواحية في بعض العقائـد والتقاليد المصـاحبة في عمليـة ازدواجية وثنائية؛ ما يدلّ على جهل بعض المسـلمين بدينهم وضـعف تمسّكهم بأحكامه.

كلّ هـذه الأمثلـة تؤكّد مـدى حرص بعض المجتمعات علـى ما كان سـائداً من عـادات وتقاليـد، ﴿... إِنَّـا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ (الزخرف: ٢٣)، لعدم فهمهم العميق للإسـلام، وهـو ما جعل البعض يخطئ

(١) الشيخ علي سيسي: إمام وخطيب مسجد حمد الله، واغادوغو.

(٢) عبد النّور ويدراوغو: معلم كتابي، في قطاع رقم ١٠ لارلي، واغادوغو.

(٣) إبراهيم كومباوري: إمام في مسجد موغو نابا – واغادوغو.

(٤) حسن جالو، مرجع سابق، ص ٤٧.

في الادعاء، مثل: Ba Amadeauhampaté، أنه يوجد (إسلام أسود) متميّز عن الإسلام في المشرق.. متكيّف مع الخصوصيات النفسية لدى السودان[١]؛ فإنّ ممارسة ما يخالف الإسلام من عادات وتقاليد لا يعدّ من الإسلام في شيء.

والمجتمع البوركيني لا يختلف عن غيره في التدين[٢]، إذ أنّه ليس هناك مجال في التدين لما يسمّى (لوحة فارغة)، تظلّ تنتظر حتى يأتي دين جديد فيشغلها، بل كلّ اللوحات مشغولة، والدّين الجديد يشهد صراعاً بين عقائده والعقائد السّابقة له، ولكي يجد الدّين الجديد آذاناً صاغية له فلا بد من أن يكلم النّاس بما يعرفون من قيم وبما يفهمون من لغة، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ...﴾ (إبراهيم : ٤)، وهذا لا يتأتى إلا عندما يؤخذ بعين الاعتبار كلّ ما كان سائداً من لغة وشعائر وطقوس، فيعمل الدين الجديد على إزالة ما غشي الفطرة بتوجيه النداء الرباني إليها، وما حجب العقول عن الإدراك السليم بسلامة المنطق وقوة الحجّة والبرهان، وتعديل السلوك بالقيم السامية النبيلة؛ فيضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، ويعزز ما كان سائداً مما يتوافق معه، وقد كان ذلك شأن الإسلام في البيئات التي انتشر فيها، وبخاصة إفريقيا، ولم يكن غربها وبوركينافاسو بمعزل عن ذلك.

والسؤال الذي يطرح نفسه: لماذا ظلّ بعض الناس في بوركينافاسو متمسكين ببعض طقوس الأرواحية رغم دخولهم في الإسلام عن اقتناع؟

لطالما ظنّ بعض الدّارسين أنّ ممارسة بعض عامّة المسلمين – جهلاً – لبعض طقوس الأرواحية في المظاهر الاجتماعية تدّل على عدم اعتراض الإسلام على التّوفيق مع الأرواحيّة، وهذا ليس بصحيح، وقد رأينا – سالفاً – أنّه لا شيء يجمع بين عقيدة الإسلام ومعتقدات الأرواحية.

ومنها ما يراه البعض من «أنّ قبول الإسلام في بوركينافاسو يدلّ على أنّه كان استجابة عملية لحاجات المجتمعات البوركينية ومصالحها في ظروف تاريخية محددة»[٣].

وذهب بعضهم إلى أنّ بساطة العقيدة وتسامحها هما ما جعل الإنسان الإفريقي يسعى إليها، وهذا هو الحقّ الذي تؤكده استجابة الإنسان للإسلام، ليس في إفريقيا وحدها، بل في كلّ أنحاء المعمورة، وقد تأتي بعد ذلك بعض العوامل والأسباب الإضافية، مثل ما وجدوه في الإسلام من الأمن والطمأنينة والشعور بالكرامة في مواجهة الخوف من العبودية، وما وجدوه من مبادئ العدل والحرية التي تجعلهم متساوين مع غيرهم من النّاس؛ حسب قول Massignon في سنة ١٩٣٨م[٤].

موقف الإسلام من الأرواحية:

نسوق في خاتمة البحث ملخصاً لما قدّمه البروفيسور مهدي ساتي من موقف الإسلام من الأرواحية[٥]:

– استطاع الإسلام تحرير المجتمع من كثيرٍ من القيم الاجتماعية الأرواحية وممنوعاتها (تابو)، مثل: (تابو العلاقات الجنسية) بين الرجل وزوجته آخر أيام الحمل، والذي حرمته الأرواحية لمدة قد تستمر لسنتين كاملتين أو أكثر بعد الولادة.

– تصدّى لما اعتبرته الأرواحية من تعثّر المرأة عند الولادة دليلاً على ارتكابها خطيئة كالزنا، فجعل المرأة التي تموت في هذه الظروف الحرجة شهيدة .

– أعاد الإسلام بناء النظام الاجتماعي عند القبائل الإفريقية على نسق يحقّق التكافل والتراحم بين الناس؛ فأوجب صلة الأرحام بين الأحياء؛ حيث لا يدخل الجنّة قاطع رحم.

– جرّد الإسلام الأموات من إمكانات النفع والضرر، واستوجب لهم الدعاء بالمغفرة، كما جعل لأجسادهم حرمة خاصّة، وجعل علاقة الأحياء بالأموات علاقة تعاطف ومحبة؛ لا علاقة توجّس ورهبة كما في الديانات

(١) Les musulmansd›afrique noir ، مرجع سابق، ص ٤٠٧.

(٢) المرجع نفسه، ص ٥٠.

(٣) مركز دراسات الوحدة العربية: العرب وإفريقيا، منتدى الفكر العربي، ط مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٨٤، ص ٨.

(٤) Triaud (J.L) Islam et sociétés Soudanaises au moyen âges, Ouagadougou, 1973, p 232.

(٥) أ.د. مهدي ساتي، مرجع سابق.

الأرواحية القديمة.

– أوجد الإسلام قيماً اجتماعية تخالف ما كان سائداً من احتقار بعض الحِرَف، كالحدادة والدباغة، حتى كان التعامل مع محترفي هذه المهن ضرباً من المكروهات، والتزاوج بهم ضرباً من (التابو)، فأزال هذه الموانع الاجتماعية، بل جعل من الحِرَف اليدوية على اختلافها حِرَفاً مباركة.

– شكّل شرب الخمر في المجتمعات الأرواحية ظاهرة اجتماعية عقائدية، حيث كان شرب الخمر حتى حدّ السكر فرضاً دينيّاً على الطاعنين في السنّ؛ فحرّمها الإسلام.

– أسّس الإسلام لقيم الكرم والضيافة، فصار الكرم سمة لمجتمعات المسلمين، ومكّنت لها أعياد المسلمين ومواسمهم واجتماعاتهم في رمضان، واتسعت ظاهرة تقديم الطعام واستضافة الغرباء في المساجد والمنازل، وانتقل الإسلام بهذه القيمة الاجتماعية إلى آفاقٍ عالمية أرحب، تمثّلت في تعاطف المسلمين في إفريقيا جنوب الصحراء مع المسلمين القادمين للحجّ من شتّى بقاع العالم.

– أولى الإسلام المرأة خصوصية عن طريق تصديه للقيم والأعراف التي حالت دون تحقيقها لحريتها، وضمانها لحقوقها المادية والاعتبارية، حيث قضت قيم الميراث الأرواحية بحرمان المرأة من وراثة الأموال، كما في مجتمعات (الهوتنتوت) على سبيل المثال، كان الإرث حقّاً للذكور دون الإناث، وذلك في سائر الأموال والممتلكات، وبالإسلام صار للمرأة الحقّ الشرعيّ في ذلك.

– عزز الإسلام قيم (الاعتداد بالنفس) في أوساط الأرواحيين، وقد لاحظ ذلك بعض الرحالة والدارسين، ذلك أنّ معظم الشعوب في إفريقيا السوداء كانت تنظر إلى (البيض) باعتبارهم آلهة أو أنصاف آلهة، خصوصاً في الأيام الأولى لقدوم المستعمرين، غير أنّ المراقبين والإداريين لاحظوا في مجتمعات الإفريقيين ظاهرة اعتداد المسلمين الإفريقيين بأنفسهم، ونظرتهم الواقعية للبيض من واقع ثقافتهم الإسلامية، بوصفهم بشراً عاديين لا يفوقونهم بشيء يوجب الخضوع، واستشهد هؤلاء الإداريون باعتداد الصوماليين والفلانيين بأنفسهم أمام البيض على وجه الخصوص، في المناسبات السلطانية الاحتفائية، كالدخول على السلاطين والأمراء، وقد ذكر الرحالة البكري كيف أنّ الداخل على السلطان في تلك المجتمعات يدخل حبواً، وقد وضع بعض التراب على رأسه؛ دليلاً على الاستكانة والطاعة، بينما اكتفى المسلمون عند تحية الملك بالتصفيق!

بعض المجتمعات الإفريقية وغيرها، من الذين اعتنقوا الإسلام، ما زالوا يحتفظون ببعض طقوسهم الدينية وعاداتهم القديمة

– أدى تقديس الأمراء والملوك إلى إذلال الشعوب، عبر تقديم القرابين والضحايا البشرية لهم، وقد أوحت الأرواحية لمعتنقيها ضرورة الوفاء لملوكهم وزعمائهم بما لا يوافق الفطرة السليمة، فظهرت في أوساطهم – كما عند اليوربا – مراسم (الانتحار النبيل)، وهو مما يدخل في مفهوم (القتل الطقسي) عند الأنثروبولوجيين المحدثين، حيث يلحق بعض الأحياء بملكهم المتوفّى تعبيراً عن الوفاء، فحرّم الإسلام ذلك لكونه إهداراً للنفس والمال.

– لقد كان لقاء الإسلام بالقيم الأرواحية لقاء تاريخيّاً استغرق زمناً طويلاً، واقتضى التقويم فيه حكمة وصبراً كبيرين، فقد أدرك الإسلام نيات الأرواحيين ومقاصدهم في تخيّرهم لأعرافهم وقيمهم، فأبقى منها ما رأى فيه منفعة لا تصادم الشرع، وأزال ما دون ذلك في تأنٍ وتؤدة ■